

الفصل الرابع

الدور الاجتماعي لعلماء الأزهر في أفريقيا

- 1 - المشاركة في الاحتفالات الدينية.
- 2 - المساهمة في مقاومة البدع والخرافات والأمراض الاجتماعية.
- 3 - المساهمة في تطوير أساليب الحياة اليومية.
- 4 - علاقة العلماء الأزهريين بالطبقات الاجتماعية الأفريقية .
- 5 - الدور الاجتماعي للأزهر بعد عصر المهاليك .

oboi.kandi.com

1 - المشاركة في الاحتفالات الدينية

تتوعد الاحتفالات الدينية الإسلامية في أفريقيا ، ما بين احتفالات سنوية مثل الاحتفالات بالعيدين وبليلة القدر⁽¹⁾ ، والمولد النبوي الشريف ، واحتفالات أسبوعية مثل احتفال يوم الجمعة ، كما تتوعد الاحتفالات الأخرى ، مثل الاحتفالات التي كانت تُقام بصفة شبه يومية في قصور السلاطين والحكام ، كما كانت رحلات الحج تعتبر من الأيام المشهودة في القارة.

وقد اهتم المسلمون في أفريقيا بالاعياد الدينية ، شأنهم في ذلك شأن جميع المسلمين في شتى بقاع الأرض ، وقد تميزت الاحتفالات الدينية التي كانت تُقام في القارة بطابع خاص ، من حيث طريقة الاحتفال ومن حيث المشاركة في الاحتفالات.

ففي الاحتفالات الخاصة بالعيدين والتي كانت تقام في بلاد الشمال الأفريقي ، كان الناس يحتشدون في الطرقات وهم مرتدون أفخر الملابس ، ثم يحضر السلطان وهو مُتَمَطِّطٌ صهوة حصانه ويبر أمامه جميع الأمراء⁽²⁾ والقواد والخدّام على أقدامهم ، ثم يحضرون صلاة العيد ، وبعد انقضاء الصلاة ينصرف كلٌّ إلى منزله .

بينما نجد في منطقة الغرب الأفريقي أن يوم العيد يتميز بطابع خاص ، حيث كان السلطان يخرج أيضاً ممتطياً ظهر جواده ، ومرتدياً الطليسان الذي كان يرتديه في العيد فقط ، ويبدأ الجمع في التكبير والتهليل ، ثم تُنصب خيمة للصلاة بعد وصول السلطان ، ثم يؤدي الجميع الصلاة ويستمعون للخطيب⁽³⁾ ويمتد الاحتفال حتى العصر . وبعد العصر يجلس السلطان ويأتي رجال الحراسة بكافة أنواع الأسلحة للاستعراض أمام السلطان ويجلس حكام الأقاليم والقاضي والخطيب ثم يأتي الترجمان بنسائه الأربعة ويُنصب له

1 - ابن بطوطة: الرحلة ، ص 445.

2 - المصدر السابق ، ص 20.

3 - نفسه ، ص 447 .

كرسى يجلس عليه ويعزف بألة موسيقية ويغنى أغاني للسلطان ، ثم تقام ألعاب بهلوانية
تصلىة للسلطان كما كانت الأشعار تُلقى بين يدي السلطان وكان الشعراء يرتدون ملابس
على هيئة طيور ، ويلقون بأشعارهم التي كانت عبارة عن قصائد تحتوي على مواظ . (1)

أما عن الاحتفال يوم الجمعة ، فقد كان يجدها اهتماماً كبيراً في كافة الممالك الإسلامية . وقد
وصف لنا ابن بطوطة صلاة الجمعة في سلطنة مقدشو حيث ذكر طرق الاحتفال من حيث
خروج السلطان في هذا اليوم لأداء فريضة الصلاة في موكب فخم ، حيث كانت تُضرب
فوق رأسه القباب الحربية الملونة ، وكيف كان يتوجه للمجدو خلفه تُرفع أربع مظلات ،
ملونة على كل مظلة طائر من ذهب ، كما كانت تُضرب الطبول بين يدي السلطان وتسير
الجنود أمامه وخلفه وبصحبه القاضي والفقهاء (2) . كما ذكر ابن بطوطة مدى حرص أهالي
القارة الأفريقية على أداء صلاة الجمعة ، ووضح مدى حرص الفقراء على نظافة ملابسهم
لدرجة أنه من كان لا يملك إلا ثوباً واحداً اهتم بغسله ليحضر به صلاة الجمعة (3) .

كما كان شهر رمضان يجدها احتفالاً كبيراً به ، خصوصاً في ليلة السابع والعشرين من
رمضان حيث كانت توزع الصدقات فيها على الفقراء ، وكان يحضر الاحتفال بهذه الليلة
اللاطين والعلماء والعامّة ، وكانت تجمع بين هذه الاحتفالات خصائص مشتركة وهي
عبارة عن إلقاء الخطب والمواظ وعرض الحاجيات على اللاطين (4)

وقد كان العلماء الأزهريون يشاركون في هذه الاحتفالات وكانت مكانتهم فيها تقع
بجوار اللاطين والأمراء وإن كانت المصادر لم تذكر أسماء على وجه التحديد ، لكن
الشيء الذي يجعلنا ننسبهم إلى الأزهر هو كثرة عدد العلماء الذين تلقوا التعليم في الأزهر
وكانوا أصحاب مكانة عالية . وكان هؤلاء العلماء الأزهريون يقومون بالدور الرئيسي في

1- ابن بطوطة : الرحلة ، ص 443 .

2- المصدر السابق ، ص 484 .

3- نفسه ، ص 450 .

4- نفسه ، ص 445 ، 447 .

تلك الاحتفالات ، فهم الذين يقومون بإلقاء الخطب والمواعظ في أيام العيدين ، وصلاة الجمعة ، وكان يسمح هؤلاء العلماء الأزهريين تقديراً لهم ولدورهم بارتداء الملابس المشابهة لملابس هؤلاء الحكام ويسمحون لهم بمرافقتهم في مواكبهم⁽¹⁾ كما سبق القول .

ومن الاحتفالات التي كانت تُمجد لها صدى واهتماماً من قبل الحكام والمحكومين رحلة الحج ، حيث كان يتم الاحتفال بها والتجهيز لها قبلها بفترة ، ثم يحتفل لها أيضاً بعد أداء هذه الفريضة . وقد تركت لنا رحلات الحج التي كان يقوم بها الحكام والرعية لوحة شالدة تبين لنا مدى الاهتمام بهذه الشعيرة من شعائر الإسلام .

ولعل رحلة حج (منسا موسى) سلطان مالي من أشهر الرحلات التي قامت بذكرها كتب التاريخ⁽²⁾ حيث قام موسى بأداء هذه الفريضة في عام 725 هـ / 1324م وصحب معه في هذه الرحلة عدداً كبيراً يصل إلى الآلاف،⁽³⁾ من أفراد الحاشية ومعهم علماء الأزهر من أبناء بلده ، كما حمل معه كمية كبيرة من الذهب كانت تعادل حمل أربعين بغلاً⁽⁴⁾ ، وقد كان منسا موسى جواداً كريماً حيثما حل فكان يقوم بإهداء الذهب ، مما كان له الأثر في أن يقع في شَرَك الديون ، مما جعله يضطر للاقتراض من بعض التجار المصريين لكي يستطيع العودة بعد ذلك إلى بلاده .⁽⁵⁾

كما أن العلماء الأزهريين لم يتوقف دورهم على مجرد إلقاء الخطب والمواعظ والمشاركة في الاحتفالات الدينية فقط ، بل ساهموا في مقاومة الأمراض الاجتماعية التي كانت منتشرة بين السكان في ذلك الوقت بكافة الوسائل التي كانت متاحة لهم .



1 - ذكر ابن بطوطة أنه في صلاة الجمعة في سلطنة مقدشو كان يسير الجميع حافياً عدا السلطان والعلماء : الرحلة ، ص 170 ، 171 .

2 - من كتب التاريخ التي ذكرت وتحدثت عن رحلات الحج التي قام بها الملوك وخصوصاً رحلة الحج التي قام بها منسا موسى كتاب الفريري : الثبراطبولك .

3 - السعدي : تاريخ السودان ، ص 7 .

4 - محمود كعت : الفتاش ، ص 36 .

5 - مادهو بانينكار : الإسلام والثنية ، ترجمة أحمد تواد ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1998 ، ص 105 .

2- المساهمة في مقاومة البدع والخرافات والأمراض الاجتماعية

انتشرت في أنحاء الممالك الإسلامية في أفريقيا بعض العادات والأمراض الاجتماعية المرذولة . وقد حاول علماء الأزهر جاهدين القضاء على هذه العادات والأمراض . وقد جانبهم التوفيق أحياناً وأحياناً أخرى كانوا يجدون صعوبة في القضاء عليها ، وكان سبب هذه الصعوبات التي يواجهها العلماء في القضاء على هذه العادات ارتباط معظم هذه العادات والأمراض الاجتماعية بالتقاليد الأفريقية ، وأيضاً نتيجة لجهل السكان ببعض القيم الإسلامية بالإضافة لحدانة عهد بعضهم بالإسلام⁽¹⁾.

وكان من أبرز الأمراض الاجتماعية التي ظهرت في شمال القارة انتشار السرقة وقطع الطريق . وقد اشتهر بها أهالي مدينة قابس نظراً لوجودهم في بادية بعيدة عن العمران ، حتى أنهم لا يعتبرون السرقة عيباً ، كما كثر بينهم الاعتداء على الجيران دون مراعاة حرمة الجيرة⁽²⁾.

كما أن جرائم القتل قد تمثت أيضاً في مناطق الشمال وخصوصاً في مناطق السوس بالمغرب الأقصى ، فقد ذكر القلقشندي أن قتل الإنسان عند هؤلاء كان كذبح العصافير ، بل وصل الأمر نتيجة حبهم للقتل أن أصبح عندهم بمثابة عمل يفتخرون به ، وكلما كثر عدد القتلى كان ذلك مدعاة للفخر⁽³⁾.

ولم تتوقف العادات والأمراض المرذولة في الشمال عند حد السرقة والقتل فقط ، بل وصلت لصفات أخلاقية أخرى مثل البهخلة الذي انتشر بينهم ، وحب التنافس والادعاء بالكرم ، وهذه صفات كانت تنتشر بين الطبقات الفقيرة من السكان⁽⁴⁾.

1- ودضيف الله : الطبقات ، ص 5.

2- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص 72.

3- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 178 .

4- المصدر السابق ، ج 5 ، ص 178.

العادات في بقية أنحاء القارة :

أما بالنسبة لبقية مناطق القارة ، فتعددت الأمراض الاجتماعية بينهم ، ولعل من أبرز هذه العادات عادة السحر الذي انتشر بينهم ؛ لدرجة أن أصبح للسحرة نفوذ كبير بين السكان لدرجة أنهم كانوا أحياناً يأمرؤن بقتل أحد الناس فيطيعونهم بسهولة . وكان السلاطين في أوقات كثيرة يستجيون لتحريض العلماء ومنهم علماء الأزهر بقتل هؤلاء السحرة (1)

ولعل من أبرز الصفات المرذولة بين هؤلاء الناس ما شاع بين النساء من سيرهن غير محجبات ، وهذا عمل غير لائق بالنسبة للشريعة الإسلامية ، ولم يتوقف الأمر عند حد سيرهن غير محجبات بل تعدى الأمر إلى تحررهن الزائد وعدم احتشامهن (2) مما حدا بالسلطان أمكيا محمد أن يتشير العلماء في هذه المسألة نتيجة لانتشارها الزائد عن الحد (3) أما الجوارى في قصور السلاطين فكان يسرن بدون ملابس (4) .

كما انتشرت عادة قبيحة وهي قيام النساء المطلقات بشراء أزواج لمن ، أي دفع أموال لهم كي يتزوجوهن (5)

كما وجدت في بعض البلاد الإسلامية مثل سلطنة مالي عادة قبيحة وهي عدم غيرة الزوج على زوجته حتى لو وجدها في خلوة مع رجل أجنبي مما شاهدته ابن بطوطة بنفسه وعند القاضي (6)

1- لم يذكر القلقشندي عالماً أزهرياً أمر بقتل السحرة ولكن بالطبع مادام كان يوجد علماء يحرضون السلاطين على قتل هؤلاء السحرة فلا بد أن يكون منهم عالم أزهرى نظر الكثرة العلماء الأفارقة الذين تعلموا في الأزهر . انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 291 .

2- ابن بطوطة : الرحلة ، ص 443 .

3- التعليل : نفس المصدر ، ص 63 .

4- ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 450 .

5- هوارد : الرحلات في غرب أفريقيا ، ترجمة عبدالرحمن الشيخ ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، 1996م ، ص 43 .

6- المصدر السابق ، ص 450 .

وكان هذا الأمر يحدث أيضاً في سلطنة دارفور حيث كانت الفتيات يُعطين قدرًا من الحرية لدرجة أن تقوم الفتاة باستقبال من تحب في حجرها المخصصة لها من منزل الأسرة (1).

كما انتشرت الفواحش وخصوصاً في المناطق البعيدة عن المدن دون أن تجد معارضة من أحد؛ لدرجة أنهم كانوا يعتبرونها من العادات المقبولة اجتماعياً (2).

ومن العادات السيئة، التي كانت بين السكان حتى على مستوى الحكام، عادة إهداء الملوك الفتيات الحسان، حيث كان إذا رزق أحد السكان بفتاة حسنة كان يقدمها للملك وتقبلها الملك كهدية (3).

كما انتشرت عادة الإفراط في تعدد الزوجات، وكانت هذه العادة منتشرة بين الحكام إذ كانوا لا يكتفون بزوج واحد أو حتى أربع كما في الشرع (4) بل تراهم يفرطون في التعدد.

ومن العادات السيئة التي انتشرت في غرب القارة الأفريقية الغش التجاري في المكابيل والموازين وأخذ السلع بالأجال دون سند أو إثباتها (5) وعدم الاستبراء (6) في البيع أقصد بيع الجواري.

يضاف إلى ذلك تلك العادة الفبيحة والغير إنسانية، ألا وهي تجارة الرقيق التي انتشرت كالنار في الهشيم في معظم أنحاء القارة دون استثناء، وكانت تتم بطريقة

1- انتونسي: تشحيد الأدهان، ص 219.

2- المغيلي: مصدر سبق ذكره، ص 62، 63.

3- انقلقشدي: نفس المصدر، ج 5، ص 296.

4- هوارد: نفس المرجع، ص 43.

5- المغيلي: مصدر سبق ذكره، ص 63.

6- الاستبراء: هو إعلان أن الحارة لا تحمل ولداً حتى لا يتنازع عليه مستقبلاً. انظر المغيلي: المصدر السابق، ص

خطف الأولاد من ذوبهم وبيعهم في أسواق الرقيق التي كانت منتشرة في كثير من أنحاء القارة⁽¹⁾ يتساوى في ذلك شرقها ، وغربها ، وشمالها ، لدرجة أنها أصبحت تجارة منظمة تحكمها قواعد وأعراف ، وكانت توجد مراكز لتجميع هؤلاء العبيد وبيعهم بطريقة لا إنسانية⁽²⁾.

أما العلماء الأزهريون فلم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه هذه الأمراض ، وكانت وسائلهم في مقاومة تلك الآفات تختلف حسب التلقين ، بالنسبة للمسلمين كان من السهل إقناعهم بترك هذه العادات ، أما غير المسلمين فكانوا مجرد دخولهم الإسلام يبدأون في التخلي عن هذه العادات ، ويكفي للتدليل على ذلك وكما ذكر السير توماس أرنولد (أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمناً على الترقى في الحضارة وأنه خطوة متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقلياً وخلقياً)⁽³⁾ وضرب السير توماس أرنولد مثلاً آخر يدل على مدى تأثير علماء الأزهر في تغيير نمط الحياة في القارة الأفريقية وخصوصاً العادات والتقاليد ما ذكره من أن أحد الرحالة وهو « جوزيف موسون » زار منطقة السودان الأوسط ولاحظ تحسناً في نوعية الملابس التي كان يرتديها السكان فقد أصبحت أكثر احتشاماً⁽⁴⁾ وتدل على الوقار وهذا ناتج بلا شك عن جهود العلماء الأزهريين .

أما إذا أعيت العلماء الحيلة في إقناع هؤلاء الأفارقة فكانوا يلجئون للحكام ويحرضونهم على القضاء على هذه العادات باستخدام النفوذ والقوة ، مثال ذلك تحريضهم للسلطين بقتل المحرة⁽⁵⁾ نظراً لخطورة هؤلاء ونفوذهم الكبير لدى الناس .

وكان بعض السلطين يستعينون بعلماء الأزهر ويراسلونهم ويستفتونهم في أحكام

1 - الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص 24 .

2 - المصدر السابق ، ص 26 .

3 - توماس أرنولد : الدعوة للإسلام ، ص 396 .

4 - المرجع السابق ، ص 373 .

5 - الفيلسوفندي : صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 291 .

الدين في بعض العادات التي انتشرت في القارة ، ومثال ذلك الأسكيا محمد الذي راسل السيوطي والمغربي يسألهم عن حكم الشرع في بعض الأمور التي كانت تسود في تلك الأماكن فقاما بتوضيح ما يجب على الأسكيا فعله في مقاومة تلك العادات⁽¹⁾.

ولكي لا نكون مبالغين وحتى نستطيع تقييم دور علماء الأزهر يجب الذكر أن العادات التي كانت تتعارض مع الإسلام ، يمكن محو بعضها بالوعظ والقنطرة ، ولكن العادات التي ارتبطت في أذهان الناس بالعادات والتقاليد كانت صعبة المقاومة واستمرت فترة كبيرة حتى العصر الحديث . فقد أشار الرحالة الذين زاروا بلاد غرب أفريقيا في العصر الحديث إلى استمرار بعض هذه العادات مثل شراء المطلقات الأزواج ،⁽²⁾ بمعنى دفع أموال لهم لكي يتزوجوهن (كما سبق القول) . وقد ظلت هذه العادات فترة كبيرة دون أن تُمحي .

وبقاء هذه العادات ردحا كبيرا من الزمن لا يقلل من جهود العلماء في القارة ، بل يكفي أنهم أصلحوا العادات الخارجة عن الدين بل أصلحوا كل ما يتصل بجوانب الحياة اليومية من حيث الطعام والسكن والملابس وأصلحوا من مكانة الأسرة في المجتمع ، وأدخلوا عادات جديدة تتعلق بحياة الأفارقة اليومية . وباختصار ساعدوا على تحويل المجتمع الأفريقي من مجتمع بدائي لمجتمع متحضر كان لا يقلل في التحضر عن أقرانه في كافة أرجاء العالم الإسلامي⁽³⁾ .

وقد حاول علماء الأزهر إصلاح تلك الأوضاع الاجتماعية بقدر جهدهم وكان يعالفتهم الحظ أحيانا في تغيير أنماط تلك الحياة اليومية ، وأحيانا كان ينالهم الإخفاق،⁽⁴⁾

1 - انظر في ذلك : رسالة المغربي ورسالة السيوطي للأسكيا محمد .

2 - هوارد : مرجع سبق ذكره ، ص 43 .

3 - توماس أرنولد : مرجع سبق ذكره ، ص 377 .

4 - ذكر بعض الرحالة أن وضع النساء في بعض المجتمعات ورغم الحرية الشديدة التي كن يتمتعن بها ظلن يعانين من عبودية في أداء الواجبات المنزلية ، ولكن لا يجب أن يؤخذ هذا الكلام على علته فكون المرأة ملتزمة بشؤون منزلها لا يعني بالضرورة أن تكون في عبودية . انظر هوارد : المرجع السابق ، ص 44 .

ونجحوا في جعل وراثة الملك في الأبناء وليس في أبناء الأختوات (1) والبنات كما حدث في سلطنة صغرى ، بالإضافة لإجبار نساء الطبقات العليا على ارتداء الحجاب (2) والنهي عن مخالطة الأجانب لأنه يتنافى مع تقاليد الإسلام . وقد نصح ابن بطوطة بذلك لقاضي سلطنة مالي (3) .

كما أن العلماء الأزهريين لم يكونوا بمعزل عن الطبقات الاجتماعية في أفريقيا بل اندمجوا فيها وكانت علاقة هذه الطبقات بهم علاقات في مجملها التقدير لهؤلاء العلماء والتأثر بهم ومحاولة إشراكهم في شؤون الحياة المختلفة .



- 1 - الهادي : مصدر سبق ذكره ، ص 12 - 15 .
- 2 - مادهو يانكيكار : مرجع سبق ذكره ، ص 135 .
- 3 - ابن بطوطة : مصدر سبق ذكره ، ص 45 .

3 - المساهمة في تطوير أساليب الحياة اليومية

أولاً: الطعام والشراب :

تنوعت ألوان الأطعمة التي كان يتناولها الأفارقة من حيث أنواعها وإن كانت قد تميزت بخاصية تجمعها ألا وهي البساطة في طريقة إعداد الطعام أو في تناوله ، أو في نوعية الطعام . كما كان الطعام يختلف حسب البيئة سواء كانت بيئة حضرية أو بدوية . فالطعام عند القبائل البدوية التي تعيش في الصحراء ، كان يتكون معظمه من اللبن الطازج في الصباح ، أما وجبة العشاء فكان يُقدَّم فيها اللحم المقدد . أما طريقة تناول الطعام فكانت تتم باليد دون استخدام ملاعق أو غيرها من الأدوات (1) .

وبالنسبة لطعام منطقة أهل الغرب الأفريقي فكان عبارة عن تناولهم الذرة والأسماك والألبان الطازجة كما كانوا يعتمدون أكثر على محصول هو نوع من أنواع الذرة لصناعة لوبن من ألوان الأطعمة كانت تسمى بالعصيدة ، وقد أكل منها ابن بطوطة ، وكادت أن تتسبب في هلاكه (2) لأنه غير معتاد على أكلها كما كانت تُقدَّم للحوم المقددة والغرتى (3) .

كما وصف لنا ابن بطوطة ألوان الطعام في منطقة الشرق الأفريقي لدى زيارته لسلطنة مقديشو وبلاد الزيلع ووصف بإسهاب طريقة إعداد تناول الطعام هناك كما وصف لنا نوعاً من المأكولات وهو عبارة عن الأرز المطبوخ بالسمن ، مع إضافة لحوم الدجاج والسمك إليه ووضع في صحاف خشب كبيرة بالإضافة لنوع آخر من الطعام وهو طبخ الموز في اللبن وإضافة عصير الليمون والفلفل عليه . كما ذكر لنا ابن بطوطة عادات أهالي الشرق الأفريقي في تناول الطعام ، وذكر أنهم يميزون بحب الطعام والشرابة في تناوله (4) .

1- الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ص 67.

2- ابن بطوطة : الرحلة ، ص 444.

3- الغرتى : نوع من الشار طعمه حلو ويستخدم في القلي . انظر المصدر السابق ، ص 443 .

4- ابن بطوطة : نفسه ، ص 67.

ومن المشروبات التي كانت سائدة في القارة مشروب الدفنو وكان منتشرًا في منطقة غرب أفريقيا ، وهو عبارة عن إضافة الذرة المجروشة إلى الماء والعمل (1) كما عُرف في بلاد دارفور المزر وهو المسمى في مصر بالبوظة وأم بليل وهو النبيذ الأحمر (2) .

أما عن جهود علماء الأزهر في تغيير الأطعمة والأشربة الغير حسنة فلا يمكن أن ندعي أنها قد ألغيت تماماً ولكن كان يُراعى عند حضور العلماء ومنهم العلماء الأزهريون أي احتفال عدم تقديم المشروبات المسكرة (3) ، وقد كانت جهود العلماء عبارة عن تغيير العادات المتعلقة بتناول الطعام كحثهم على غسل الأيدي قبل الأكل وبعده ، وذكُر البسلة عند البدء في تناول الطعام ، والأكل مما يلي الإنسان ، ونظافة الأواني التي يُقدَّم فيها الطعام ، وعدم شرب المحرم من المشروبات ، مع غرس قيم إسلامية فيهم مثل الكرم (4) والترحيب بالضيوف حتى في الأماكن التي كانت تتميز بوجود تقشف في طبيعة الحياة . كما كان من نتائج مشاركة العلماء للأفارقة في الطعام الاهتمام بإقامة الولائم والمشاركة فيها مع جميع طوائف الشعب (5) .

ثانياً : الملابس :

للملابس وظيفة اجتماعية فهي تدل على الوضع الاجتماعي والاقتصادي لصاحبها، أو تدل على انتمائه ، لذا تنوعت الملابس طبقاً للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية . وهذا القول ينطبق على القارة الأفريقية التي تنوعت فيها البيئات الاجتماعية كما شهدت أيضاً تغييرات اقتصادية وطبيعية .

فملابس البدو سكان الصحارى كانت تتميز بالبساطة ، وهي عبارة عن قطعة من

1 - ابن بطوطة : نفسه ، ص 452 .

2 - الترنسي : تحييد الأذهان ، ص 231 .

3 - الترنسي : مصدر سبق ذكره . ص 231 .

4 - الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ص 97 .

5 - المصدر السابق ، ص 68 .

فماش الصوف، يلفونها حول الجسم ، بالإضافة لعمامة كبيرة حول الرأس . هذا بالنسبة
 للباس البدو العاديين ، أما بالنسبة لأشراف البدو فكانوا يرتدون اللثام الأسود (1)
 الذي كان يغطي الوجه عدا العينين . (2) وبالنسبة للحلابس كانوا يرتدون قمصاناً بأكمام
 عريضة من قماش قطني أزرق اللون (3) أما ملابس النساء البدويات فكانت تتكوّن
 من ثوب عريض الكُمّين ، بالإضافة للخيار الذي كان يغطي الرأس ويربط طرفه على
 الكتف بحشك ودبائيس لكي تمسكه (4) .

أما بالنسبة لمنطقة الغرب الأفريقي فتميزت أيضاً بالباس بالبساطة وإن اختلفت
 حسب الطبقات ، فملابس أهل كوكو مثلاً كانت تُصنع من الجلد (5) وكان تصميمها
 بسيطاً يكفي أن يغطي العورة هذا بالنسبة للطبقات الفقيرة ، أما طبقة التجار والأغنياء
 فكانوا يرتدون الملابس المصنوعة من القطن ، ويرتدون القلانس على رؤوسهم كما
 كانوا يتزينون بالذهب (6) ، أما الملوك فكانوا بالإضافة لتلك الملابس يرتدون السراويل
 والنعال (7) بينما وجدت أماكن بعيدة عن العمران كان السكان لا يرتدون أي نوع من
 الملابس (8) .

أما مناطق شرق القارة في سلطنة مقديشو فقد اختلف الثياب أيضاً كما تميزت
 بتعددتها ، وكانت الملابس عبارة عن فوطة يشدها الإنسان في وسطه ، ويرتدي عباءة
 مصمعة من الثياب المصرية ، ويلفون العمام أيضاً على رؤوسهم (9) .

- 1 - من عادة اللثام الأسود : انظر هامش رقم (4) ، الفصل الثاني .
- 2 - الحسن الوزان : مصدر سبق ذكره ، ص 68 .
- 3 - الحسن الوزان : نفسه ، ص 67 .
- 4 - نفسه ، ص 73 .
- 5 - الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص 28 .
- 6 - المصدر السابق ، ص 28 .
- 7 - الإدريسي : نفسه ، ص 24 .
- 8 - الحسن الوزان : نفسه . ص 553 .
- 9 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 170 .

أما عن دور العلماء الأزهريين في هذا الجانب من جوانب الحياة اليومية ونتيجة لكثرة حثهم للسكان على الطهارة وأداء الصلاة في مواعيقتها فقد أصبح هؤلاء السكان يهتمون بنظافة الملابس ونتيجة لحثهم الناس على أن يستروا ونتيجة لمقاومتهم لعادة العري في هذه الأماكن فقد أصبح الناس يرتدون الملابس دليلاً لحثهم على النظافة كان الأفريقي الذي لا يملك إلا ثوباً واحداً بالياً يهتم بغسله وتنظيفه ليحضر به صلاة الجمعة⁽¹⁾ لأن الإسلام يأمر بظهارة البدن والثوب .

ثالثاً : المسكن :

كان يراعى في تصميم المساكن ملائمتها للبيئة وطبيعة الحياة ، لذا نجدها تختلف من مكان لآخر في القارة طبقاً لاختلاف البيئة . فمثلاً في منطقة الشمال الأفريقي حيث تنوعت البيئة ما بين صحراوية إلى بيئة حضرية نجد اختلافاً في نمط المساكن والمباني ففي المناطق الصحراوية وحيث تعيش القبائل ، وكانت المساكن عبارة عن خيام مصنوعة من وبر الجمال ومن ألياف كانت تؤخذ من النخيل ، كما كانت تلك الخيام تفرش في الداخل بحُصر ناعمة⁽²⁾ . مصنوعة من قش الخيزران الناعم⁽³⁾ وبالنسبة للمناطق الحضرية كانت المباني تُبنى من الأحجار ومواد البناء الأخرى كالأخشاب ، كما كانت المدن تحتوي على أسواق مسقوفة بالإضافة لتمتعها بطرق فسيحة⁽⁴⁾ .

أما البيوت في منطقة الغرب الأفريقي ، فكانت تعتمد اعتماداً كبيراً على الخامات المحلية المتوافرة بكثرة مثل الطمي الذي كان يُصنع منه الطوب اللازم للبناء .

كما يلاحظ على هذه المساكن أنها ذات طبيعة دفاعية ، حيث كانت تحاط بالأسوار، وكانت المساكن عبارة عن أكواخ مستديرة مبنية من أعمدة طينية وسقفها مخروطي

1 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 450 .

2 - الحسن الوزان : المصدر السابق ، ص 67 .

3 - المصدر السابق : ص 67 .

4 - Briningham: Islam in west Africa , oxford , 1962 , p.68 - 4

الشكل (1) كما كان يغلب عليها اللون الأبيض ، ويستخدم في بنائها مادة تخلط بهادة دهنية فتصبح قوية وأقدر على التماسك (2) .

أما بالنسبة للمباني الحجرية في تلك المناطق فكانت تتميز بها العمائر الدينية وقصر الحاكم بالإضافة لبيوت كبار التجار والأثرياء . والذي أدخل هذا النوع في البناء في منطقة غرب أفريقيا هم الغرباء الذين قدموا مع السلطان منسا موسى بعد عودته من رحلة الحج المشهورة (3) كما كانت تُلحق بالمدن أسواق تتميز بوجود طرق واسعة للمرور (4) .

أما بالنسبة لمنطقة الشرق الأفريقي ، فقد زار ابن بطوطة سلطنة كلوة ووصف لنا طبيعة المنازل وذكر أنها تُبنى من الخشب ، كما ذكر طبيعة الطرقات والأسواق بالمدينة ، كما وصف أيضاً مساكن سلطنة مقديشو وشوارعها (5) .

رابعاً : الأسرة :

تميّز المجتمع الأفريقي بأنه مجتمع أموي ، السلطة فيه كانت للأُم ، لذا كان من الطبيعي أن يحتل مجتمع المرأة مكانة كبيرة في هذا المجتمع على المستوى الأسري ، كما حظيت المرأة الأفريقية بحرية شديدة وصلت إلى التسبب الخلقى ، فمثلاً في قبائل الطوارق التي كانت تعيش في الصحراء الكبرى ورغم التشدد المعروف في طبيعة هؤلاء البدو إلا أنهم كانوا يتركون لنسائهم الحرية الشديدة في محادثة ومخالطة الغرباء داخل بيوتهن وأمام الأزواج (6) كما كانت المرأة تسير سافرة الوجه (7) .

1 - الحسن الوزان: وصف أفريقيا ، ص 540 .

2 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 443 .

3 - الحسن الوزان : المصدر السابق ، ص 540 .

4 - Brimingham : op.cit.p.68 .

5 - الحسن الوزان : نفسه ، ص 69 .

6 - نفسه ، ص 69 .

7 - ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 443 .

كما لعبت المرأة دوراً هاماً في الحياة السياسية. فقد كان لنساء السلاطين والحكام سلطة وكنَّ يعملن كمستشارات للملك، كما كانت أم الملك تلقب بالملكة الأم (مادجيرا) كما تركزن للنساء الحرة أيضاً في مصاحبة أزواجهن أثناء السفر أو تركه (1).

أما بالنسبة للأطفال فقد كانوا يُنسبون للأم حيث إنها كانت تتولى شؤون الأسرة، ولذا ارتفعت مكانة الخال في المجتمعات الأفريقية، كما أن الرجال لا يرثون إلا أبناء أخواتهم بل كان الملوك لا يولون أبناءهم ولاية عهدهم بل كان ذلك لأبناء أخواتهم أو بناتهم (2).

وقد حاول علماء الأزهر إصلاح تلك الأوضاع الاجتماعية بقدر جهدهم وكان يحالفهم الحظ أحياناً في تغيير أنماط تلك الحياة اليومية وأحياناً كان ينالهم الإخفاق (3). فقد أصبح توارث الملك في الأبناء وليس في أبناء الأخوات أو البنات (4)، كما وجدت في سلطنة صنغي، بالإضافة لإجبار نساء الطبقات العليا على ارتداء الحجاب (5) والنهي عن مخالطة الأجانب لأنه يتنافى مع تقاليد الإسلام. وقد نصح ابن بطوطة بذلك قاضي سلطنة مالي (6).

كما أن العلماء الأزهريين لم يكونوا بمعزل عن الطبقات الاجتماعية في أفريقيا بل اندمجوا فيها، وكانت علاقة هذه الطبقات بهم علاقات في مجملها التقدير لهؤلاء العلماء، والتأثر بهم ومحاولة إشراكهم في شؤون الحياة المختلفة.



1- ابن بطوطة : الرحلة ، ص 443.

2- ذكر بعض الرحالة أن وضع النساء في بعض المجتمعات رغم الحرية الشديدة التي كُنَّ يتمتعن بها ظللن يعانين من عبودية في أداء الواجبات المنزلية، ولكن لا يجب أن يؤخذ هذا الكلام على علاته، فكون المرأة ملتزمة بشئون منزلها لا يعنى بالضرورة أن تكون في عبودية. انظر هوارد: مرجع سبق ذكره، ص 44.

3- الحمدي : تاريخ السودان ، ص 12 : 15.

4- مادهو بانينكار : مرجع سبق ذكره ، ص 135.

5- ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 443.

6- بانينكار : مرجع سبق ذكره ، ص 465.

4- علاقة العلماء الأزهريين بالطبقات

الاجتماعية الأفريقية

قبل الحديث عن علاقة العلماء الأزهريين بالطبقات الاجتماعية الأفريقية التي تشكل منها المجتمع في أفريقيا ، يجب ذكر التركيب الطبقي للمجتمع في الممالك الإسلامية الأفريقية ، حيث يمكن التعرف على نوعية هذه العلاقات ومظاهرها التي كانت تسود هذا المجتمع الأفريقي ، وموقف العلماء الأزهريين منها ، فقد تكوّن المجتمع الأفريقي من عدة طبقات وهي طبقات الحكام ، والعلماء ، والتجار ، والأحرار ، والرقائق . وفيما يلي حديث عن علاقة العلماء الأزهريين بكل منها .

أولاً : طبقة الحكام :

كانت هذه الطبقة تحتل قمة الهرم الاجتماعي في المجتمعات الأفريقية وتحتل المرتبة الأولى . ويأتي الملوك والسلاطين على رأس هذه الطبقة . وكان السلطان يعامل في أفريقيا الغربية على اعتبار أنه شيء مقدس وكان هذا بالنسبة للملوك الوثنيين (1) ، أما الملوك المسلمون فكانوا يُعاملون باحترام زائد ولذا كان يتم تعامله مع الرعية من خلال موظف حتى لا يخاطب أي شخص مباشرة . وتلك النظرة المتعالية كان سببها تقديس الناس لهؤلاء الملوك ، كما كان من طقوس الدخول على الملك إهالة التراب على رأس الداخل ، مع تعفير اليدين وتسمى عادة التتريب حتى يظهر تقديره للملك (2) .

ولكن بالنسبة لمنطقة الشمال والقرن الأفريقي فلم تكن هذه العادات لها مجال ويكمن السبب في ذلك قرب ممالك الشمال والشرق بالعالم الإسلامي مع تأثرهم به وانعدام المظاهر الوثنية في تلك الممالك ، كما أن عادة التتريب لم تكن مطبّعة على العلماء فكان العالم إذا دخل على السلطان في غرب أفريقيا فإنه يكفي بالتصفيق والدعاء للسلطان ، والسلطان يؤمّن

1 - بانيكار : مرجع سبق ذكره . ص 65.

2 - ابن بطوطة : الرحلة . ص 447.

على دعائه . ثم يقرآن الفاتحة معاً (1) .

كما يلي الملوك في المرتبة طبقة الأمراء وكبار موظفي القصر ورؤساء الجند ، وكان من حق هؤلاء تولي الوظائف والمناصب العليا المدنية والعسكرية كما كان لهم حق السيادة على معظم طبقات الشعب وخصوصاً في سلطنات الغرب الأفريقي ، وكانت هذه الطبقة تملك العديد من الرقيق نتيجة لكثرة هبات السلاطين لهم ، كما تمتعوا بنفوذ وثراء كبير (2) . أما عن دور علماء الأزهر في تطوير عادات هؤلاء الحكام فكان يتم هذا الدور عن طريق وعظ هؤلاء وحثهم على تحرير الرقيق ومعاملة الناس بالحسني ، ويتضح هذا الدور من خلال الخطابات التي كان يوجهها هؤلاء العلماء للسلاطين . وكانت هذه المراسلات عبارة عن أجوبة لأسئلة معينة تتعلق بالعادات أو عن طريق الوعظ المباشر (3) .

ثانياً : طبقة العلماء :

كانت تتكون هذه الطبقة من العلماء الأزهريين سواء العلماء المحليين أو القادمين من الأزهر إلى هذه السلطنات والممالك . وكانت هذه الطبقة تتمتع بنفوذ كبير حيث كانوا يمتلكون الأراضي ويتولون المناصب العليا (4) ، كما كان هؤلاء العلماء يُعاملون بتقدير واحترام من مختلف الطبقات في المجتمع الأفريقي سواء كانت الطبقات الحاكمة أو المحكومة . كما كانت طبقة العلماء تتمتع بعدة امتيازات مثل إعفائهم من أداء الضرائب (5) وإعفائهم من تقديم الأموال لتجهيز الجيوش وغيرها ، كما كانت هذه الطبقة ترتدي ملابس خاصة بها (6) ، وأحياناً تتشابه ملابسهم مع ملابس الحكام . والسبب الرئيسي

1 - التونسي : تشيخ الأذهان . ص 408 .

2 - بانكار : المرجع السابق . ص 474 .

3 - انظر رسائل السيوطي للملك التكرور .

4 - من المناصب العليا التي كان يتولاها هؤلاء منصب القضاة والعمل كمستشارين للملك . لمزيد من التوضيح

انظر ابن بطوطة : الرحلة ، ص 171 .

5 - ابراهيم علي طرخان : امبراطورية البرنو ، ص 178 .

6 - ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 447 .

هذه المكانة التي كان يتمتع بها هؤلاء العلماء هو تقريب الحكام والسلاطين لهم . كما كانت لهم كلمة مسموعة بين الحكام .⁽¹⁾

ثالثاً : طبقة التجار :

تمتعت هذه الطبقة بمكانة كبيرة نظراً لامتلاكهم الثروة ، بالإضافة لكونهم من ذوي الاتصال بالحكام ، وكان منهم من يتولى منصب رئاسة طائفة فكان يتم تعيينه من قبل السلطان ، كما كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الرقيق.⁽²⁾ وعلى الرغم من عدم اشتراكهم في السياسة والتوجهات السياسية ، كان لديهم دور مؤثر في الحياة الاقتصادية ، كما قاموا بدور مؤثر في الحياة العلمية ؛ وهي إرسال الطلاب للتعلم في الجامع الأزهر وخاصة لأنه كان يوجد بينهم علماء⁽³⁾ .

رابعاً : طبقة الحرفيين والفلاحين :

وهي طبقة عامة الشعب وكانت تتكوّن من أصحاب الحرف والمهن والفلاحين وأيضاً الرقيق المحررين ، وقد عاشت هذه الطبقة في ظل ظروف قاسية بسبب إرهابهم بكثرة الضرائب الباهظة وتعرضهم للاختطاف من جانب تجار الرقيق بالإضافة لإمكانية فقدانهم لحرمتهم نتيجة الديون المتركمة عليهم⁽⁴⁾ ، مع عدم وجود إمكانية للترقى أو للعمل في المناصب الحكومية .

يضاف إلى ذلك أن هذه الطبقة هي التي تركزت فيها معظم العادات الأفريقية التي كانت لا تتفق وروح الإسلام ، كما أنها كانت تتعرض لكثير من عنت الحكام ، وفي الحروب وغيرها كانوا يتعرضون لتدمير ممتلكاتهم وأراضيهم .

1 - مادهو بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص 476 .

2 - مادهو بانيكار : المرجع السابق ، ص 478 .

3 - حسن إبراهيم حسن : مرجع سبق ذكره ، ص 26 .

4 - بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص 478 .

خامساً : طبقة الرقيق :

عرفت كل المجتمعات الأفريقية في الممالك الإسلامية نظام الرقيق ، ولم يخل أي مجتمع من هذه المجتمعات من الرقيق .

وكانت وسائل الحصول على الرقيق هي كثرة الحروب بين القبائل ووقوع الكثير في الأسر ، أو من خلال عملية البيع والشراء ، حيث كانت هناك تجارة منظمة للرقيق ، أو عن طريق الهبات . كما كان الرقيق أحياناً يكونون أحراراً عجزوا عن سداد ديونهم فأصبحوا عبيداً نتيجة لعجزهم عن السداد (1) .

وقد انقسم الرقيق بدورهم إلى عدة فئات : الفئة الأولى هم رقيق القصر الملكي والذين يعملون في مزارع الملك أو الحياكم ، وهم أعلى مكانة من الرقيق الذين يخدمون في البيوت العادية . وكان هؤلاء الرقيق الخلق في الالتحاق بالوظائف العسكرية والمدنية ، وقد وصل بعضهم في الترقى لدرجة الضباط (2) . وبلى هؤلاء في المرتبة الرقيق الذين يحصلون على بعض الحقوق مثل حق الامتلاك وغيره وكان محرماً بيع هؤلاء الرقيق ، أما الرقيق الذين احتلوا المرتبة الثالثة فهم الذين يعملون في الحرف والهن ، أما رقيق الفئة الرابعة فهم الرقيق الذين يعملون في خدمة البيوت العادية (3) أما عن علاقة علماء الأزهر بهذه الطبقات فكانت علاقات يميزها الاحترام الشديد لهؤلاء العلماء ، كما أن هؤلاء العلماء الأزهريين ارتبطوا أيضاً بالطبقات الأفريقية المختلفة وتنوعت مظاهر الارتباط ، ومن مظاهر علاقة العلماء بهذه الطبقات :

أولاً : احترام الملوك للعلماء وخاصة الأزهريين منهم :

كان الملوك يقادرون العلماء ويحترمونهم . وكان السبب في هذا الاحترام أن هؤلاء العلماء يحصلون الشريعة الإسلامية ويُعتبرون حراساً على الدين . وهناك أيضاً أسباب

1 - محمود كمت : الفتاوى ، ص 12 : 14 .

2 - داهو بانيكاز : المرجع السابق ، ص 478 .

3 - نفسه ، ص 478 .

أخرى لهذا الاحترام منها تكتل طبقة العلماء ووحدة تماسكها⁽¹⁾، ووقوفها ضد الحكام الظلمة، مثل وقوفهم ضد ممارسات (سن علي)⁽²⁾ فقد وقفوا ضد ممارساته بل عملوا على تشويه سمعته لدى المواطنين مما عرّضهم لمحن كثيرة. وأيضاً رفضهم توني المناصب عند استشعارهم الظلم من الحكام، وأحياناً كثيرة كانوا لا يوافقون على توني منصب القضاء بل يتهربون منه⁽³⁾. كما أن ثراء العلماء من الناحية المادية جعلهم أحياناً أصحاب صوت أعلى من بعض الحكام الذين يلون السلاطين والملوك⁽⁴⁾.

ومن مظاهر احترام الملوك لعلماء الأزهر، إعفاء العلماء من بعض العادات التي كانت تُشيع في مقابلة الملوك مثل عادة التتريب التي أشرنا إليها، بل إن بعض الملوك كانوا يقومون ووقفاً واحتراماً للعلماء وحدهم، وكانت التحية المخصصة للعلماء عند مقابلة الملوك هي وضع يده اليمنى على كتف الملك⁽⁵⁾.

ومن مظاهر الاحترام التي كان يبديها الملوك أيضاً للعلماء الأزهريين مشاورتهم لهم وأخذ النصيحة منهم في بعض المسائل التي قد تعترض هؤلاء الحكام مثل المراسلات التي تمت بين اسكيا محمد الأول والعالم السيوطي، وكان الحكام يستجيرون لتلك النصائح⁽⁶⁾.

ثانياً : احترام الطبقات الأخرى للعلماء :

نظراً للمكانة التي تمتع بها العلماء الأزهريون وغيرهم بين الحكام، ونظراً لكلمتهم السموعة لدى هؤلاء الحكام، كان الأهالي في أفريقيا يقدّرون هؤلاء العلماء ويوقروهم، وكانوا يعتبرون العلماء حلقة وصل بينهم وبين الحكام لدرجة أن العلماء في أفريقيا احتلوا المكانة التي كان يحتلها الساحر، وتتمثل هذه المكانة في الاحترام، حيث كان الناس قبل

1 - مادهو بانكار : الإسلام والثنية ، ص 499.

2 - السعدي : تاريخ السودان ، ص 64.

3 - التبكتي : نظير الدينياج ، ص 353.

4 - المصدر السابق ، ص 354.

5 - هوارد : مرجع سبق ذكره ، ص 42.

6 - الفلشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 246.

ظهور العلماء محترمون السحرة لأنهم كانوا يقومون بكتابة التهائم والتعاويذ⁽¹⁾ ، وقيام العلماء بهذه المهمة جعل الساحر غير ذي قيمة . كما كان للعلماء كلمة مسموعة بين هؤلاء الناس⁽²⁾ .

وكان من الأشياء اللافتة للنظر هو عدم تعامل العلماء بتعالٍ مع الطبقات الأفريقية ، بل قوا هذه العلاقات بوسائل منها المصاهرة مع القبائل الأفريقية ، فتزوجوا من كافة الطبقات سواء الطبقات الحاكمة أو الطبقات الشعبية ، مما كان له الأثر في تقوية الروابط بين الفريقيين . ويحكى لنا ابن بطوطة عن اثنين من العلماء الذين التقى بهما أثناء رحلته كان أحدهما متزوجاً من امرأة أفريقية هي بنت عم السلطان⁽³⁾ ، ولم يذكر لنا عن العالم الثاني ممن تزوج ولكن كان متزوجاً أيضاً من امرأة أفريقية ويقيم معها ، وكان النسب أكثر ما يبدو ظاهراً ومنتشراً بين العلماء ذوي الأصول الأفريقية نظراً لأنها أوطانهم الأصلية . أما العلماء القادمون من مصر فكان هذا الزواج غير منتشر بينهم نظراً لعدم إقامتهم الطويلة في تلك البلدان⁽⁴⁾ .

تلك كانت هي أبرز ملامح ارتباط العلماء بالطبقات الأفريقية مما ساعد على بروز دور العلماء الأزهريين في توجيه هذه المجتمعات تجاه القيم الإسلامية وصبغها بالصبغة الإسلامية . ولم يتوقف دور العلماء الأزهريين على الناحية الاجتماعية فقط بل تعداه وتخطاه إلى التأثير في الناحية السياسية حيث برزت جهود العلماء في الحياة السياسية في أفريقيا وقاموا بدور رئيسي في توجيه تلك السياسة .



1 - توماس أرنولد : الدعوة للإسلام ، ص 297 ، 298 .

2 - الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ص 97 .

3 - اسم الذي تزوج ابنة عم السلطان هو محمد بن الفقيه الجازولي ، كانت هذه الزوجة توصل الطعام لابن بطوطة . انظر ابن بطوطة : الرحلة ، ص 440 .

4 - وكان هذا الزواج منتشراً بين العلماء الأزهريين في منطقة الشمال الأفريقي ، حيث كان أغلبهم يطيب لحم الختام في تلك البلدان . انظر مثلاً زواج محمد بن الفقيه الجازولي . المصدر السابق ، ص 440 .

5- الدور الاجتماعي للأزهر بعد عصر المماليك

ارتبط العلماء الأزهريون بالمجتمعات الأفريقية والتي كانت تنظر لهم بكل تقدير واحترام ، وقد قام هؤلاء العلماء بجهود كبيرة في المجال الاجتماعي بعد عصر المماليك ، وقد كان من أبرز هذه المجالات :

أولاً : رفع شأن المرأة :

على الرغم من أن المجتمعات الأفريقية اشتهرت بتقديرها للمرأة ، ووضعها في مكانة متميزة لعل من أبرزها نسب البعض إلى أمهاتهم . لكن الأزهر أعلى من شأن المرأة العلمي ، حيث قام علماء الأزهر بتعليم البنات حفظ القرآن الكريم ، وكانت الخلاوي تجمع بين الصبيان والفتيات . وكان من نتيجة ذلك ظهور عالمات في الفقه والعلوم الشرعية من أمثال فاطمة بنت جابر⁽¹⁾ ، وعائشة بنت محمد الغدال⁽²⁾ ، وبتول الغبشة⁽³⁾ ، وأمونة بنت عبود⁽⁴⁾ .

ثانياً : تنقية التصوف من الشوائب :

تلقى الكثير من طلبة العلم الأفارقة دروسهم على يد علماء أزهريين متصوفة من أمثال شمس الدين الملقاني ، وناصر الدين الملقاني ، والشيخ الدردير ، والشيخ محمد عليش ، والشيخ إبراهيم الباجوري .

- 1- فاطمة بنت جابر : هي أخت أولاد جابر الأربعة ، حفظت القرآن الكريم وهي في سن اثنا عشرة عاماً ، وكانت تقوم بتعليم الصبيان في مسجدنا بالدفار . انظر محمد سليمان : مرجع سبق ذكره . ص 97 ، 96 .
- 2- عائشة بنت محمد الغدال : كان أبوها من علماء الفرائض . قامت بتأسيس مدرسة عل النيل الأبيض لتعليم الطلاب ، من أشهر تلاميذها الشيخ خوجلي العالم السوداني . انظر المرجع السابق . ص 97 .
- 3- بتول الغبشة : والدة الشيخ هجر ، وأخت الشيخ يعقوب . اشتهرت بإجادتها حفظ القرآن الكريم والتجويد ، وكان لها مدرسة خاصة بسنار ، كما اشتهرت بنسخ الكتب العلمية . المرجع نفسه . ص 97 .
- 4- أمونة بنت عبود : كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم ، وتدير مكتبين واحد للصبان والآخر للفتيات ، وكانت تنفق عليها من عملها بعزل القطن . نفسه . ص 97 .

وقد أرسى هؤلاء العلماء الأزهريون في نفوس طلبتهم السودانيين أصول التصوف الصحيح ، مما كان له الأثر الكبير في تنقية التصوف من البدع والخرافات التي لحقت به (1) .

ثالثاً : علاقة العلماء الأزهريين بطبقات المجتمع :

ارتبط علماء الأزهر بطبقات المجتمع الأفريقي ، ولم يعيش هؤلاء العلماء في معزل عنها . وقد أسهموا في بناء كثير من النهضة في هذه المجتمعات ، وغرسوا في نفوس أبنائها الكثير من القيم والمباديء . وقد ظهر هذا الدور جلياً في إنشاء الصحف التي ساعدت على تنوير المجتمعات مثل صحيفة الرائد (2) .

رابعاً : تقدير المجتمع لعلماء الأزهر الشريف :

كان من نتائج قوة العلاقة بين علماء الأزهر والطبقات الأفريقية ، قيام كثير من الشعراء بالتغنى في أفضال أساتذتهم المصريين . وقد ظهر هذا النوع من الشعر في بلاد السودان وادي النيل منهم على سبيل المثال الشاعر السوداني عبدالله حسن الكردي ، حيث قال :

أهراهم فوق السماء مكانة	وهم ميامين الورى أختيار
في كل جامعة هم نشء سماء	بذكاء فكر طار منه شراؤ
وبكل حسي للمعاهد ضجة	فالعلم بين ربوعهم أنهار
أنى يجيد الفضل عن أوطانهم	والفضل ليس له سواهم دأؤ

1 - محمد سليمان : مرجع سبق ذكره . ص 91 .

2 - المصدر السابق . ص 118 ، 119 .